

منه أمهرفنا

ردود الرسائل

للاستاذ محمد رجب البيومي

ينتقل الإنسان في حياته من مكان إلى آخر ، ويترك قوما ليحل بين قوم ، وفق ما تتطلبه شواغل الحياة . وهو في كل ناحية يقطن بها حيناً من الدهر ، يتخذ لنفسه أصدقاء يقاسمهم الود ويخلص لهم النصيحة ، وقد ييسط لهم جناح المعونة إن وفقه الله إلى معروف ، ثم تغشى الأيام فيجد نفسه مضطراً إلى فراق زملائه ليستأنف عملاً جديداً في مكان آخر ، فيودعهم ويودعونه حاملاً بين أطواء نفسه من الذكريات الطيبة ما يبلذله أن يستميده بين الغينة والغينة ، والإنسان أقوى الحيوانات جميعها على التذكر والاستمادة ، لجميع الحيوانات - غيره - نفسى ما يعترضها في الحياة بعد انقضائه بأيام أو أسابيع ، أما الإنسان وحده فيحتفظ في مخيلته بذكرى كريات يرجع بها إلى الطفولة والراهقة مهما امتدت به السن في طريق الحياة فيستطيع أن يسرد لغيره أنباء طال عليها العهد ، ولكونها لم تنفد مرآتها الواضحة في خاطره ، وقد يسمح به تفكيره فيتمثل إخواناً شاطروا الود ، ولقى منهم المعروف ، فيحن إلى ما تقدم من مودم الماضية ، ثم يدفع بالحنين إلى مراسلتهم والوقوف على أنبائهم ، وفي الرسالة تثبيت المودة على البعد ، وتقوية المحبة على الزوج ، فهي تقرب الشاسع ، وتقضى مسألة التأني . ونظرة فاحصة إلى ما خلفه الأدب العربي في تراثه الثمين من الرسائل الإخوانية تريك النجب المجيب ، فقدمت ازدهت الموسوعات الأدبية بتحف خالدة من الرسائل ، وهي فوق مكانتها المالية في البلاغة والمنطق ، تدل على الشعور الطيب الذي حفز أصحابها لتسطيرها وإنشائها ، وتنبئ عما منحوه من إخلاص في الحب ، وصدق في الوفاء ، وإخلاص المرء وسام ناصع بزين به ، فهو الدليل المقتنع على مروءته ونبله ، كما يبرز للناس معدنه الحقيق دون بهرجة وتزييف !!

ونحن في عصرنا الحاضر نفرق في أعمالنا المادية إلى آذاننا ، ونستهلك أوقاتنا جميعها فيما نأمل منه النفع والكسب ، فلا يجد الكثيرون وقتاً صافياً للبراسة في زعمهم . وقد يتطوع بعض من جبلوا على الوفاء والبر ، بالسؤال عن أصحابه ، فيسطر الصحيفة المخلصة إلى من يصطفيه ، وتغشى الأيام فلا يجد رداً يسمفه بأنباء صاحبه ، فيسطر رسالة أخرى مبقياً على ما يدخره من محبة رود ، فيأبى الرد أن يعود إليه أيضاً !! وأنت نمجج حين تسمع من يرددن هذه الشكوى في أسف وحيرة ، بل إن المجب ليبلغ منك أقصاه حين تقابل في الطريق من بعثت إليه رسائله ، فيخبرك أنه حظى بقرائتها ، وأنس بلفظها ، غير أن ظروفه الخاصة لم تمكنه من الرد السريع !! وكأنه لا يجد خمس دقائق يسطر فيها فوق قرطاسه ما يحتمه الواجب المزم ، وإذا كان من الأمور المنجولة أن تحبب زميلك في الطريق تحية عابرة ، فلا يرد عليها أجمل رد ، فكيف بمن تتذكره على البعد ؟ فتسطر إليه أنباءك وتساله عن أنبائه ثم لا تظفر بعد ذلك بخطاب مريح !!

هذه مشكلة خلقية الية . تدل دلالة واضحة على ما يفرنا من تدابر وتقاطع ، وتنبئ عما يتقصدنا من يقظة ووعي ، وهي كجميع مشاكنا الاجتماعية ناجمة عن إهمال التعليم الخلقى في محيطنا الشعبي ، فنحن في معاملتنا الشخصية لا نقيدهم بمحدد واضحة المعالم ، بينة الصوى ، فندرس الأخلاق دراسة عملية ، ونطبقها تطبيقاً ملزماً وإعياً ، بل نقيدهم بقشور تافهة نقرأها ولا نفقدها في أكثر الأحيان ، وأقول - في صراحة - إنه ليست لدينا حدود خلقية ، تلقن في المدارس ، وتذاع في الصحف ، وتتناقل بين الناس ، ولكنا نطبع علاقاتنا الاجتماعية بطابع التقليد والمحاكاة ، فالصغير يقلد الكبير ، والمتأخر يحاكي المتقدم ، إذ يعيش معه في محيط واحد ، ولا عليه إذا أخطأ بعد ذلك ، فقد وقع في الخطأ من يفوقه ويكبره ! وحسبك أن تكون زلة الكبير دقاً ما يجما يتقدم به الصغير ، وحال كهذه الحال يجب أن تزعزعا العواصف الهوج وواضح أن البريد في عهدنا الحاضر قد قطع أبعاداً شواطه في ميدان السرعة ، حتى ليتمكن الإنسان أن يرسل أخاه وواء

ونحن نتكلم هنا عن الرسائل الصادقة الخالصة لوجه المودة والوفاء فلا نتحدث عن الرسائل النفعية ، التي يقصد بها أصحابها قضاء أرب مادي ، أو استغلال نفوذ شخصي ، فالسكوت فيها - في بعض الحالات - يجد مبرراته وظروفه ، وإن كان الأجدر بصاحب الخلق الرفيع أن يسي حسب طاقته في نفع أصدقائه ، ما لم يؤد به مساهم إلى ضرر إنسان ما ، فإذا لم تدمه النتيجة المرتقبة ، أعلن أمره إلى صاحبه في رسالة صادقة . ورب خطاب رقيق أراح الضمير وأثلج الصدر ، وإن لم يمد بالثمرة المشتهاة

إن من المؤلم حقا أن تنقطع الروابط بين الناس لجرد ابتعادهم من مكان إلى مكان . وزيد في الألم أن تكون وسائل الاتصال في متناول اليد دون أن تجد من يحرض عليها ، والرء في خضم الحياة هدف للشا كل المعقدة ، والمضلات المؤرقة ، فهو في حاجة ماسة إلى المشورة والاستفتاء ، ومن الطبيعي أن يرسل خالصه مستفسرا مستبثا ، فقد يجد لديهم الحل المريح في غير عتاء ، ومن المضحك أن الرء في أغلب أحواله - كما لك الجزين - يرى الرأي لغيره صادقا بصيرا ، وتنخطفه الحيرة فلا يراه لنفسه إلا بعد مشقة وجهد . وتتليل هذه الظاهرة سهل بين ، فالإنسان - إلا من عصم الله - شديد الخوف على نفسه ، يظن الريبة والخطر في كل ما يقدم عليه ، فلا يكاد يخطو خطوة واحدة حتى تتقاذفه الحيرة من سبيل إلى سبيل ، لكن صديقه - في الغالب - أقدر منه ثباتا وعزما ، فهو ينظر إلى المشكلة بعين الواقع ، طارحا ما يترامى من الشكوك دبر أذنه ، ولا ننمى بذلك أنه قليل المبالاة بما يعترض الوقف من مصاعب ، بل يفرض فيه اليقظة والحذر مع أعصاب هادئة وجنان مطمئن ، وإن عاطفة « اعتبار الذات » لتمتد من الإنسان فتشمل ذويه وأصحابه ، وتدفعه إلى المشورة السديدة والمساندة المخلصة ، فأولى بالعقل أن يلجأ إلى أصحابه على البعد ، بينهم النجوى ، ويسيطر أمامهم الشا كل ، وأولى بهم أن يسارعوا في إيضاح التامض . وحل المشكل ، فتدور عليهم الدائرة يوما ما ، ويحتاجون إلى من يشاررونه ويناشدونه ، وفي ذلك تخفيف مريح لا تمتحن به الإنسانية من ويلات ، وإن مجتمعا يتضافر

لأميال الشاسمة . والمسافات القاصية ، فتصله الرسالة في اليوم الذي كتبت فيه بأجر لا يقوم له اعتبار ، فلم لا نستغل هذه الأداة الطيئة في توثيق الملائق وتقوية الروابط بمجتمع مفكك متداب . وليت شمرى كيف نكون لو تقدم بنا الزمن قرونا عدة ، فرأينا العهد الذي يقطع فيه البريد شهورا وأسابيع حتى يقع في متناول صاحبه البعيد ، وقد نجد أثناء هذه المدة ظروف تقلب أنباء الرسالة وصاحبها رأسا على عقب ، والرء قليل بنفسه ، كثير بإخوانه ، فإذا قطع صلته الأخوية ، بمن أنس إليهم حينما من الدهر ، وسعد بلقائهم فترة طويلة ، فسيخسر الشيء الجليل . وكثيرا ما أقع في حيرة مخجلة حين يقابلني أحد الزملاء فيسألني عن صديق يعرف ما كان بيني وبينه من الود الأكيد فلا يجدني ملما بأنيائه وأخباره ، وكأننا لم نتقابل قبل الآن ، أو أطول اجتماع لم نبت ليلة نما - كما قال متمم - وإن أرجه الكلام لتضييق في وجهي حين أم بإجابة هذا السائل ، فإذا عسى أن أقول له ؟ أخبره أني راسلته متسائلا عن أنيائه فلم أظفر برد ؟ أم أظهر أمامه عاقا غليظا فأعلمه أني لم أتصل به منذ فارقت ؟ أم أبسط إليه ما يضر مجتمعا الخلقى من تقصير وإهمال ؟ ترى ماذا يكون ؟ وأنت تبحث عن سبيل البذر في تقصير القصرين فلا تجد به محال ، بل إنى أعلن للقراء أن هؤلاء لا يتمتعون بضمير حي متيقظ ، وأن من لا يرد النعيية بأحسن منها جدير أن ينسلخ من ثياب الإنسانية . وإن ترسل الكلام على إطلاقه ، فتحن نعلم أن من الرجال من تنزاحم أمامهم الرسائل ، وتتكدس فوق مكاتبهم الخطابات ، فلا يجدون في فراغهم الضيق ما يكفي للإجابة والتعليق ، وهؤلاء في العادة لا يقصرون في حقوق من اتصلوا بهم اتصالا شخصيا ، وعرفوم معرفة وثيقة ، وإنما يفرطون في جانب من يشغل فراغه بمراسلة العظماء والموهوبين في غير طائل ، وهم معذورون في هذا التفريط إذ عدت الرابطة الشخصية ، وضاق الوقت عن الإجابة المحيطة ، فلا تؤاخذهم في ذلك ، وإنما تؤاخذ من يقصر في حقك ، وقد خالطته بنفسك ، وأقضى إليك - يوما ما - برغبانه وخليجاته ثم فرق بينكما الزمن ، فنسى أمره ، وفرغ لهومه ، وتجاهل حقوق المودة ذلك عيب شنيع .